

أحباس الكتب المخطوطة في المغرب الأوسط  
مواصفاتها وأشكال الانتفاع بها - (7-10هـ / 13-16م)  
كروم عيسى  
أ.د عبد العزيز فيلاي  
جامعة عبد الحميد مهري قسنطينة 2

### الملخص

كانت الكتب المخطوطة من بين أنواع الأحباس التي سارع الناس في بلاد المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط إلى تجميعها على المكتبات الخاصة، والعامّة في المساجد و المدارس و الزوايا، لينتفع بها المدرسون وطلبة العلم؛ فقد صاحب بناء المساجد والمدارس إنشاء الخزائن وتجميع الكتب العلمية والدينية عليها، من طرف السلاطين ومن طرف عامة الناس؛ وكان للكتب المخطوطة المحبسة خصائص انفردت بها، مثل كتابة حبس في أولى أوراقها وفي بعض أوراقها الداخلية لتمييزها عن بقية الكتب الأخرى؛ كما كانت لها ضوابط شرعية وقانونية لاستغلالها حيث كانت تخضع لشروط محبستها، كأن لا يخرج من المكتبة أو القراءة دون النسخ، كما كان هناك تمييز في الاستغلال بين الكتب والمصاحف.

**الكلمات المفتاحية:** الحبس، الوقف، المخطوطات، المكتبات، الخزائن

Manuscripts were among the types of waqf that people rushed, in the central Maghreb during the middle ages, to waqf in private libraries in mosques, schools and Zaouias so as to benefit teachers and students. The building of mosques and schools came along the establishment of cabinets and making of habous (wakf) of scientific and religious books, in them, by sultans and the general

public as well. Wakf manuscripts had characteristics property them like writing "Habous" on the first sheet and on some of the sheets inside in order to differentiate them from the other books. They also had legitimate and legal rules to use them since they were subject to the terms of people who put them in waqf such as not to let them come out of the library without coping as there was also distinction between the exploitation of books and Korans.

**Keywords** ; habouse, wakf, Manuscripts, libraries, religions books

#### مقدمة

الحبس أو الوقف<sup>1</sup> نوع من الصدقات الجارية التي حثت الشريعة الإسلامية عليها، كما يعتبر من أعظم أعمال البر و الإحسان، يسعى صاحبه من ورائه التقرب إلى الله وابتغاء الجزاء في حياته وبعد مماته؛ عرّف الفيروزآبادي الحبس بأنه كل شيء وقفه صاحبه من نخل، أو كرم أو غيرها فيحبس أصله ويسبل غلته. والحبس من الخيل الموقوف في سبيل الله، وقد حبسه وأحبسه. وأضاف أنّ تحبيس الشيء يعني أن يُبقي أصله ويجعل ثمره في سبيل الله.<sup>2</sup> وجاءت مشروعية الوقف استناداً على مجموعة من الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة، نذكر منها قوله تعالى ﴿يُنَبِّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخْتَرَ﴾<sup>3</sup>، وقوله تعالى ﴿لَنْ تَنَالُوا

الرَّبِّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ. ﴿٤﴾ وفي السنة  
عن أبي هريرة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: " إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ  
انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَكْدٍ صَالِحٍ يَدْعُو  
لَهُ " <sup>5</sup>، وفي حديث آخر عن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله  
عليه وسلم " إِنَّ مِمَّا يَلْحَقُ الْمُؤْمِنَ مِنْ عَمَلِهِ وَحَسَنَاتِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ عِلْمًا عَلَّمَهُ وَنَشَرَهُ،  
وَوَلَدًا صَالِحًا تَرَكَهُ، وَمُصْحَفًا وَرَّثَهُ، أَوْ مَسْجِدًا بَنَاهُ، أَوْ بَيْتًا لِابْنِ السَّبِيلِ بَنَاهُ، أَوْ  
نَهْرًا أَجْرَاهُ، أَوْ صَدَقَةً أَخْرَجَهَا مِنْ مَالِهِ فِي صِحَّتِهِ وَحَيَاتِهِ، يَلْحَقُهُ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِ " <sup>6</sup>

وقد تنوعت الأحباس ما بين ممتلكات عقارية، وممتلكات منقولة، كما مسّت  
مختلف مجالات الحياة ثقافية، واجتماعية ودينية واقتصادية، ففي المجال الثقافي ركز  
المسلمون على بناء المدارس، والمساجد والزوايا وتزويدها بالكتب؛ وكان لهذه  
الأخيرة عناية كبيرة من طرف المسلمين رواية وكتابة وإقراء وتأليفا وذلك لأهميتها  
العلمية، ودورها في خدمة العلم. <sup>7</sup>

وانطلاقا من هذا الباب سارع بعضهم إلى تجميع الكتب بمختلف أنواعها على  
المكتبات الخاصة، و العامة في المساجد و المدارس و الزوايا، من أجل الانتفاع بها  
سواء من طلبة العلم أو من المدرسين.

تأسيسا على ما سبق تسعى هذه الدراسة إلى الكشف عن سّنة تجميع الكتب  
ومواصفاتها وأشكال استغلالها من خلال الإجابة على الأسئلة التالية: إلى أي  
مدى وصلت عناية أهل المغرب الأوسط بجس الكتب؟ ومن هي الفئات  
المحسّسة؟ وما أنواع الكتب المحسّسة؟ وكيف كانت تستغل كتب الأحباس؟

## 1 - الاهتمام بإنشاء المكتبات ووقف الأوقاف عليها

كان لتشييد المدارس في المغرب الأوسط دور كبير في تنشيط الحركة العلمية، ولم يكن بناء المدارس وحده كافيا لنجاح العملية التعليمية دون رصد الأموال تخصص لنفقات و أجور القائمين عليها، ويظهر ذلك جليا ما قام به أهل البر و الخير من حكام ومحكومين في تجييس الأموال على مختلف المؤسسات التعليمية؛ وكانت المدارس أهم المؤسسات العلمية المستحدثة خلال القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي لتقوم بعملية التعليم، إلى جانب المساجد، والكتاتيب والربط والزوايا التي كانت معروفة منذ مجيء الإسلام إلى ديار بلاد المغرب، حظيت هذه المؤسسات بالناية المادية من طرف السلاطين، فكلما بنيت مدرسة إلا أوقفوا عليها الأوقاف الكثيرة من الأراضي والدور والحمامات والطواحين<sup>8</sup> وغيرها، ربما من أجل ضمان استمرارها في أداء مهامها العلمية النبيلة؛ ولتكون مصدرا ماليا لجرايات ومرتبات المدرسين والطلبة؛<sup>9</sup> لقي هذا العمل استحسانا من طرف الناس حتى أصبحت المدارس تستقطب أعدادا كبيرة من الطلبة والمدرّسين إليها، وكانت للمدرسة غرف تابعة لها يسكنها الطلبة،<sup>10</sup> وزيادة على ذلك ومن أجل توفير المناخ الملائم للطلاب تم إنشاء خزائن الكتب وتجييس الكتب عليها سواء في المساجد أو في المدارس لتكون سندا و معيننا تساعد الطلبة على الاستزادة من العلوم المختلفة المصادر.

إن إنشاء المكتبات لم يكن جديدا على أهل المغرب الأوسط، بل كان معروفا عندهم منذ فترة بعيدة، فقد اهتم ولاة الدولة الرسمية من قبل على توفير الكتب وجلبها إلى تيهرت من البقاع البعيدة، دُكر أن البيت الرستمي كان بيت العلوم وجامعا لفنونها، ويبحثون عن الكتب ويسعون للحصول عليها، فقد بعث الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم (160هـ - 171هـ / 777-788م)

بألف دينار إلى البصرة ليشتروا له بها كتباً؛<sup>11</sup> وكان لأئمة الدولة الرسمية اهتماماً بالغاً في إنشاء المكتبات العلمية التي كانت زاخرة بمختلف أنواع العلوم في العاصمة تيهرت، ومن أشهرها مكتبة " المعصومة"،<sup>12</sup> التي كانت تحوي ثلاثمائة ألف مجلد في مختلف أنواع الفنون، والآداب والعلوم، ولكنها لم تسلم من الحرق على أيدي الشيعة الإسماعيلية أثناء غزوهم لمدينة تيهرت سنة 296هـ/908م، ولم يتركوا فيها إلا ما تعلق بالرياضيات، والهندسة والطب.<sup>13</sup>

ومع تطور الزمن زاد الولوج بإنشاء المكتبات ففي عهد الدولة الحمادية كثرت فيها المكتبات العمومية والمكتبات الخاصة، فمن المكتبات العامة تلك التي كانت متواجدة في المساجد متاحة للجميع، ونذكر على سبيل المثال المكتبة التي كانت في مسجد المنار بالقلعة كانت مملوءة بالكتب المتنوعة المحمولة من أقطار المغرب، و المنقولة عن دروس أساتذة الجامع.<sup>14</sup> وكذلك الخزانة اللتين كانتا موجودتين بباب البهو من أبواب الجامع الأعظم ببلدة قسنطينة الذي يعود بناؤه إلى سنة 430هـ/1038م حيث كان يتردد عليهما العلماء والطلاب للقراءة<sup>15</sup> بالجامع وأما المكتبات الخاصة فكانت تحت تصرف أصحابها وعلى وجه التحديد العلماء منهم والمدرسون، مثل المكتبة التي كان يمتلكها أبو عبد الله بن الحسن بن ميمون التميمي القلعي (ت 673هـ/1274م)،<sup>16</sup> أتاحها للطلاب لا فضل له عليهم فيها، يطبق فيها نظام الإعارة.<sup>17</sup>

وفي العهد الزياني ازداد اهتمام أهل المغرب الأوسط بتشييد المكتبات ووقف الكتب عليها مع ازدهار الحركة العلمية، خاصة منذ منتصف القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي، حيث كانت المساجد والمدارس تغص بالمصاحف، والكتب المتنوعة من العلوم العقلية والنقلية و الفنون والآداب في خزائنها؛ ومما اشتهر من

المكتبات العامة مكتبة الجامع الكبير بتلمسان، وهي من إنشاء السلطان أبي حمو موسى الثاني (760-791هـ / 1359-1388م)،<sup>18</sup> والتي كانت توجد على يمين المحراب وكان قد دون على بابها، "أمر بعمل هذه الخزانة المباركة السلطان أبو حمو بن الأمراء الراشدين أيد الله أمره وأعز نصره ونفعه بما وصل ونوى و جعله من أهل التقوى وكان الفراغ من عملها يوم الخميس ثالث عشر لذي القعدة عام سبعمائة و ستين"،<sup>19</sup> ولا يستبعد أن يكون قد أنشأ مثلها في المدرسة اليعقوبية التي بناها تخليدا لوالده الأمير أبو يعقوب، فقد احتفل بافتتاح المدرسة احتفالا كبيرا وأكثر عليها من الأوقاف.<sup>20</sup>

وذكر عن السلطان أبي زيان محمد بن حمو (796 - 801هـ / 1394 - 1399م)<sup>21</sup> أنه كلف بالعلم حتى صار منهج لسانه وروضة أصفانه، وكان ناسخا للمصاحف ولكتب الفقه والحديث؛<sup>22</sup> وأن عناية واهتمام هذا السلطان للعلم والعلماء جعلته ينشئ مكتبة عظيمة "بمقدم الجامع الأعظم بتلمسان، التي هي من مآثره الشريفة المخلدة من ذكره الجميل ما سرت به الركبان، لما أوقف عليها من الأوقاف الموجبة للوصف بجميل الأوصاف"<sup>23</sup> كما كانت الزوايا التابعة لأهل التصوف تحوي العديد من الكتب المحبسة عليها فقد ذكر محمد ابن سعد الأنصاري التلمساني(ت901هـ/1495م) أن زاوية الشيخ إبراهيم التازي بمدينة وهران كانت تحوي على الخزائن المملوءة بالكتب العلمية وآلات الجهاد.<sup>24</sup>

وظلت هذه المكتبات تؤدي رسالتها العلمية طيلة فترة العصور الوسطى ثم الحديثة، وقد أضيفت إليها العديد من الخزائن إلى درجة أن الفرنسيين اندهشوا لحجم الكتب المخطوطة التي وجدوها فيها أثناء حملتهم على المدن الجزائرية مثل مكتبة عائلة الفكون بمدينة قسنطينة؛<sup>25</sup> هذه المكتبة التي توارثتها العائلة عن

الأجداد منذ العصر الوسيط كانت تحتوي على أكثر من ألفين وخمسمائة مجلد أغلبها في الفقه والحديث.<sup>26</sup>

ومما يؤسف له أن هذه المكتبات لم تعد قائمة، فلا نعرف شكلها ولا حجمها و لا كيف كانت تنظم فيها الكتب، ولكن لا يُستبعد أن تكون كمثيلاتها في الأقاليم المجاورة، فمن خلال الدراسة التي قام بها محمد المنوني حول أنظمة الخزانات العمومية في المغرب الوسيط، حيث تتبع عدة نماذج في كل البلاد المغاربية والأندلس، توصل إلى أنه كان يوجد نوعين لأجهزة وضع الكتب بالخزائن، وهي إما الدواليب المتحركة، و إما الخزانات الحائطية وكلا منهما كان يشتمل على رفوف داخلية توضع عليها الكتب.<sup>27</sup> ويبدو أن هذا التنظيم كان يسري على جميع المكتبات التي تحوى عددا كبيرا من الكتب، وهي طريقة مثلى تسمح للباحث الوصول إلى الكتاب بسهولة وتهدف إلى المحافظة عليه من التلف، أما بالنسبة إلى تزويد المكتبة بالكتب فكان الغالب عليها كتب محبسة إما من طرف السلاطين الذين سعى الكثير منهم إلى توفير الكتاب بشتى الطرق، وإما من طرف الخواص و لاسيما العلماء و الفقهاء حيث دأب بعضهم على تحبيس نسخ مما يؤلفون.

## 2 - أحباس الكتب من طرف السلاطين

تجلت عناية أهل المغرب الأوسط في نشر العلم بتحبيس الكتب بشكل لافت للانتباه، منذ القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي، ويندرج تحبيس الكتب من طرف السلاطين في إطار تشجيعهم للعلم، فبالإضافة إلى بناء المدارس، والمساجد أكثرها الأوقاف عليها من الأملاك العقارية ليضمونها لها دخلا قارا، فكانوا يجبسون عليها المصاحف والكتب المتنوعة، لتكون تحت تصرف الطلبة

والمدرسين؛ حيث شهدت فترة العصور الوسطى صعوبة في الحصول عليها من الأسواق فكان بعضهم يقطع أميالاً ليفوز بكتاب خاصة الكتب النادرة، ومن الشواهد على ذلك أن أحدهم في منتصف القرن الخامس الهجري لما سمع بكتاب تفسير القرآن الكريم للإمام عبد الرحمن بن رستم (160هـ - 171هـ / 777-788م) يباع في أسواق القلعة سافر إليها قادماً من ورجلان، غير أنه لم يفلح في الحصول عليه إذ أُخبر بأنه قد بيع.<sup>28</sup>

و الكتب كانت ولا زالت من أهم الوسائل المساعدة على طلب العلم، ولم يكن الحصول عليها في ذلك الوقت من طرف الطلبة أمراً سهلاً، فقد لا يجد الطالب عمّا يبحث عنه في السوق أو عند الوراقين؛<sup>29</sup> ومن أجل ذلك لقيت عملية تحسيس الكتب كل التشجيع من طرف الناس، فأصبحت جل الكتب الموجودة في الخزانات، والمدارس والمساجد تابعة للأحباس، وظلت المكتبات هي الوجهة الرئيسية للمنشغلين بالعلم؛ ولعل قلة الكتب وعدم قدرة الكثير من طلبة العلم الحصول عليها جعل السلاطين يجسسون الكتب ويضعونها في الخزائن كلما بنو مدرسة جديدة لتكون في متناول المتعلمين والمدرسين؛ فعندما بنيت مدرسة العباد بتلمسان استفادت مثل بقية المدارس الأخرى من تحبيسات الكتب من طرف السلطان أبو الحسن المريني (732- 751هـ / 1331 - 1351م) وهذا ما نلمسه من قول صاحب المسند " ...هذه المدارس مع ما حبس في جملها من أعلاق الكتب النفيسة والمصنفات المفيدة فلا جرم أن كثر بسبب ذلك طلب العلم وعدد أهله. و ثواب المعلم والمتعلم في ميزان حسناته بلغه الله ذلك"<sup>30</sup>

إن حب المسلمين وعنايتهم للكتب وخاصة المصحف الشريف، جعلتهم ينفقون الأموال الكثيرة لخدمته نشرًا، وتحفيظًا وتحبيسا، وشارك في هذه العملية



كافة فئات المجتمع، فأصبحت سنة حميدة سار عليها معظم السلاطين والأمراء؛ فعلى الرغم من أن حبس الكتب يرجع إلى فترة قديمة في تاريخ المغرب الأوسط، إلا أن سلاطين الدولة الزيانية كان لهم باع طويل في هذا المجال حيث حبسوا كتبهم على كتاتيب التحفيظ ليستفيد منها أولاد الضعفاء والمساكين،<sup>31</sup> وفي الخزانات، والمكتبات الموجودة في جميع المؤسسات الدينية والعلمية.

وقد وصلتنا أخبار في غاية الأهمية عن دور سلاطين المغرب الأوسط في نشر العلم، و الاهتمام بنسخ الكتب ووقفها، فقد أفادنا محمد التنسي أنه "لما بوع السلطان أبي زيان محمد بن أبي حمو في ربيع سنة 796هـ/م 1394م أقام سوق المعارف على ساقها، ولم تخل حضرته من مناظرة، ولا عمرت إلا بمذاكرة، و محاضرة فلاحت للعلم في أيامه شمس..."<sup>32</sup>، فقد نسخ نسخا من المصاحف بيده وحبسها في خزائنه، ومنها مصحف موجود في الخزانة العامة بالرباط، مكتوب بخط مغربي جميل، على رق غزال محلى بالذهب عند أول كل سورة، وعلى رأس كل آية، وجميع ما فيه من أسماء الله الحسنى مكتوب بالذهب، نسخه بتلمسان عام 801هـ/م 1398م،<sup>33</sup> و اعتنى بكتب الحديث ومختلف أنواع العلوم حيث أنه نسخ أيضا نسخة من صحيح البخاري، ونسخا من الشفا لأبي الفضل عياض، حبسها كلها في خزائنه بمكتبة الجامع الأعظم،<sup>34</sup> وكان قد صنّف كتابا في التصوف سماه " كتاب الإشارة في حكم العقل بين النفس المطمئنة والنفس الأمارة" ومن دون شك أن هذا الكتاب هو الآخر كان من أحباسه في خزائنه، ولكنه يعد في حكم المفقود على ما ورد عند محمد بوعياذ محقق كتاب تاريخ بني زيان ملوك تلمسان و هو مقتطف من نظم الدر والعقيان.<sup>35</sup>

كان من عادة سلاطين بني زيان عندما ينظمون قوافل الحج يختارون أحد الشيوخ من كبار الفقهاء، والعلماء يترأس القافلة يحملون معهم المصحف، والكتب الصحاح التي تم نسخها بتلمسان، وإرسالها إلى البقاع المقدسة وتحييسها على القراء في مساجد مكة، والمدينة وبيت المقدس وبيت الخليل بفلسطين؛<sup>36</sup> وهذا يعكس مدى تعلق أهل المغرب الأوسط حكاما ومحكومين بالأماكن المقدسة.

وكان المصحف المخطوط المحبس يلقي اهتماما كبيرا من طرف المحبين، ولنا في هذا الشأن مثال عن المصحف الشريف الذي نسخه ونمقه الناسخ أحمد بن حسن البلباني التلمساني،<sup>37</sup> الذي نسخ مصحفا للسلطان المريني أبي يعقوب يوسف (685 . 706 هـ / 1286 - 1307 م)،<sup>38</sup> عندما كان في المنصورة أثناء حصاره لمدينة تلمسان حبسه على الحرم المكي، ويكفيينا وصف ابن خلدون له بقوله " مصحف رائع الصنعة، كتبه ونمقه أحمد بن الحسن الكاتب المحسن، واستوسع في جرمه، وعمل غشائه، من بديع الصنعة، واستكثر فيه من مغالقات الذهب المنظم بخرازات الدر و الياقوت، وجعل منها حصاة وسط المغلق تفوق الحصيات مقدارا وشكلا وحسنا، واستكثر من الاصونة عليه"<sup>39</sup>؛ ووُصف لضخامته بكونه جمل يعير نُقل في موكب للحجاج إلى مكة المكرمة عام 703 هـ / 1303 م.<sup>40</sup>

وكان لهذا المصحف مكانة كبيرة في البقاع المقدسة لما له من فضل من طرف صاحبه، فمما تفضل به السلطان على المصحف المحبس هو تحييسه للأراضي بالمشرق على قراء المصحف،<sup>41</sup> ويذكر ابن مرزوق الخطيب بأنه وقف عليه وقرأ فيه حيث قال "وقد رأيت بمكة شرفها الله المصحف الذي بعثه المولى أبو يعقوب بخط

ابن الحسن، وكان وجهه محلى بالذهب المنظوم بالجواهر النفيسة، فانتزع ما عليه وبقي في قبة الشراب يقرأ فيه احتسابا وقد قرأت فيه في أعوام.<sup>42</sup>

### 3 - أحباس الكتب من طرف الرعية

لم يكن السلاطين وحدهم يقومون بهذا الفعل، وإنما وجدنا من العامة من كان يجبس كتبها له إما على المساجد، أو المدارس أو الزوايا، ومن دون شك أن مساهمة العامة من الناس في حبس الكتب، كان بهدف الحصول على الأجر والثواب، غير أن النصوص الواردة إلينا في هذا الشأن قليلة، وذلك لعدم اهتمام المؤرخين بالعامة من الناس مثل اهتمامهم بالأمراء والسلاطين، باستثناء بعض الإشارات هنا وهناك.

من أهم ما وصل إلينا من معلومات حول تحبيس الرعية للكتب، ما جاء في الدرر للمازوني عن رجل أوصى بتحبيس كتب كان يملكها بعد موته، وعلى الرغم من أنه كان مستدان إلا أن الفقهاء أفتوا بأن يمضي الحبس؛<sup>43</sup> وفي نازلة أخرى تقول بأن رجلا كانت لديه كتب حبسها في مرضه على من يكون فقيها من أولاده، فانتفع بها أحد بنيه كان منشغلا بالعلم، ثم توفي فرجعت لولد آخر من أولاده كان متمسكا بطلب العلم.<sup>44</sup>

وكان من سنة الشيوخ وأهل العلم كثيرا ما يجبسون الكتب، ويتصدقون بما فقد ذكر لنا ابن مرزوق في المناقب أن والده أبو العباس أحمد بن مرزوق (681هـ- 741 / 1282-1340م) عندما عزم على الرحلة إلى مكة المكرمة أعتق مملوكة له، وحبس كتبها وأوصى له بكتب.<sup>45</sup> ومن المدن التي حافظت على مكتباتها العامة والخاصة منذ إنشائها إلى غاية العهد الحفصي، واستمر الناس في تحبيس الكتب خاصة المصاحف على المساجد والربط؛<sup>46</sup>

ولم يكن أهل المغرب الأوسط يجسسون الكتب داخلها بل كانت لهم مشاركة خارج الديار أيضا، إذ توجد مجموعة من الكتب محبسة في رواق المغاربة بالأزهر الشريف تعود لأهل المغرب الأوسط، نذكر منها مخطوط اللمع في الفقه، وحسب ما جاء في صفحته الأولى أن الكتاب من تأليف أبي زكريا يحيى التلمساني (ت663هـ/1264م)<sup>47</sup>، أما بشأن التحبيس فقد كُتِب في الورقة الأولى منه " هذا من جملة ما أوقف الشيخ محمد التلمساني على طلبة العلم الشريف ولا ينتفع به في غير ذلك"<sup>48</sup> وكان للعلماء حض كبير في تحبيس الكتب لاسيما على الحرمين الشريفين، وعلى المسجد الأقصى غير أنه لم يصلنا من المعلومات عنها إلا القليل فقد كانت للشيخ إبراهيم التلمساني (ت766هـ) كتب جليلة في الفقه، والأصول و الحديث واللغة، وغيرها حبس أكثرها بمكة المكرمة و بعضها على المدرسة الشهابية بالمدينة المنورة.<sup>49</sup>

لقد حافظت جل المحاضر المغرب أوسطية على ما تم انشاؤه من مكنتات وخزائن للكتب وعلى سنة تحبيس الكتب عليها، وبصفة خاصة المدن التي عرف عنها نشاط علمي غزير كتلمسان، وقسنطينة وبجاية، هذه الأخيرة التي تميزت بكثرة مكنتاتها الخاصة والعامة، ورغم مكانتها العلمية إلا أن الحديث عن المكتبات الموقوفة لم يرد إلا قليلا عند بعض المؤلفين الذين تكلموا عن تحبيس بعض المصاحف على المساجد وعلى الربط.<sup>50</sup>

#### 4 - الكتب المحبسة و الكوديكولوجيا

كانت الكتب المخطوطة تلقى اهتماما بالغا من طرف الناسخين، والوراقين سواء من حيث الخط أو من حيث التجليد، وغيرها مما كانت تتطلبه صناعة المخطوط؛ إلا أن الكتاب المحبَس انفرَد ببعض الخصوصيات عن غيره من الكتب

المخطوطة الأخرى، حيث أنه تميز بمواصفات خاصة به، ونتيجة لكثرتها وقيمتها العلمية ظهر فرع في علم الكوديكولوجيا<sup>51</sup> يسمى الوقفيات، يهتم بدراسة كل ما يتعلق بالمخطوطات المحبسة كمعرفة المحبس، وتاريخ التحبيس والخزانة المحبسة عليها، وهذه الدراسات الخاصة بالكتب المحبسة ساعدت الباحثين في التوصل إلى معرفة المخطوطات التي كانت مجهولة المؤلف، أو العنوان أو هما معا وكذا تاريخ التأليف.<sup>52</sup>

ومن المواصفات الأساسية التي تميزت بها الكتب المحبسة عن غيرها من أنواع الأحباس الأخرى، هو خاصية التوثيق فهو لا يشبه بقية الأوقاف الأخرى، فكما هو معروف أن كل وقف يجب توثيقه بالصيغة المعروفة لدى الموثقين،<sup>53</sup> بينما توثيق المحبس في الكتب يكون في الكتاب المحبس ذاته، فالعادة كانت تقتضي أن تكتب صيغة التحبيس في الورقة الأولى التي تنص على العنوان، وصاحب المحبس ومكان التحبيس وشروط استغلال الكتاب، وكان العرف السائد أيضا عند أهل المغرب الإسلامي أن تكتب في معظم ورقات الكتاب أو جميعها كلمة حبس، وهذا بخلاف الأحباس الأخرى حيث لا يمكن أن يكتب عليها حبس باستثناء الحيوانات كالأحصنة هي الأخرى كان يوسم على جلدها كلمة حبس.

وكانت كلمة حبس تكتب في الكتاب بطريقتين: الطريقة الأولى وهي الكتابة بغير مداد حيث اضطر القدماء منذ القرن السادس للهجرة أن يرسموا عليها كلمة "حبس" بواسطة ثقب متتابعة بالإبرة أو ما يشبهها لينفذ الثقب إلى سائر الأوراق.<sup>54</sup> وبهذا يصبح الكتاب المحبس مميّزا عن غيره من الكتب الأخرى، ويكون التعامل معه مخالفا لباقي الكتب، ولاسيما في إعارته وإخراجه من المكتبة.

أما الطريقة الثانية والتي شاعت بكثرة خلال القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي، هو الكتابة بالمداد في أول الصفحات نص توثيقي يذكر فيه صيغة الوقف، واسم الموقوف، والجهة الموقوف عليها وقد تضاف إليها شروط التحبیس، وتكتب في بقية الصفحات كلمة وقف أو حبس، والعادة أنها كانت تتكرر في معظم الصفحات، وتكتب في نفس المكان، بمعنى إذا كتبت في الأعلى ينسحب الأمر على بقية الأوراق، وإذا كتبت على هامش الورقة على اليسار أو اليمين، يحافظ كاتبها على نفس الوتيرة في جميع الأوراق لا يخالفه، وكان هذا مطبق في معظم الوقفيات، وبعضهم كان يكتفي بتكرارها في بعض الصفحات الداخلية، وقد يوجد في جميع أجزاء الكتاب، وهذه الأمور كلها يمكن ملاحظتها في الكتب المخطوطة المحبسة.

##### 5 - النظام القانوني والشرعي لاستغلال الكتب المحبسة

من دون شك أن المكتبات خلال هذه الفترة كانت تسير وفق نظام معين، يستند إلى ضوابط تنظيمية قانونية وشرعية في استغلال الكتب المحبسة الموجودة في المكتبات العامة الموجودة في المدارس أو المساجد أو الزوايا؛ وليستفيد الطلاب من الكتب المحبسة، وفي نفس الوقت المحافظة على الكتب اعتمدت المكتبات نظام الإعارة، وفي هذا الشأن قال ابن حيان " إذا أردت كتابا استعرته من كتب الأوقاف وقضيت حاجتي"<sup>55</sup> لكن القاعدة الأساسية في استغلال الكتب المحبسة يخضع بالدرجة الأولى إلى ما شرطه الحبس، فمنهم من كان يشترط أن لا يعطى من الكتب إلا كتابا بعد كتاب، هذا بالنسبة للكتب التي يسمح بخروجها من المكتبة، وبحضرة الخازن المسئول عنها.

وقد فرق الفقهاء في التعامل بين كتب العلم والمصاحف، بحيث يمكن لأحدهم أخذ الكتب العلمية لنسخها، أو قراءتها من مكان التحييس إلى الدار، أو مكان آخر لان الأصل فيها حبست لذلك،<sup>56</sup> ما لم يشترط محبسها عدم النسخ، فقد كان بعضهم عندما يحبس كتبها يشترط شروطا من أجل الانتفاع بها كأن يقول بأنها محبسة للقراءة دون النسخ<sup>57</sup> أما المصاحف فكان لا يسمح بإخراجها وإنما قراءتها في المكان الذي حبست فيه .

#### - خاتمة

إن أحباس الكتب على المؤسسات العلمية له دلالات كثيرة فهي تدل على اهتمام أهل العلم وأصحاب السلطة بضرورة نشر العلم من جهة، ومن جهة ثانية محاولة التقرب إلى الله بالصدقات الجارية للحصول على الأجر في الحياة وبعد الممات. كما تدل على مشاركة جميع أهل المغرب في عملية تحييس الكتب ولم تقتصر على فئة معينة منهم، بل ساهم فيها السلاطين والعلماء والشيوخ والعامّة من الناس. وكان تحييس الكتب هو الطريقة الشرعية الوحيدة التي تقدم خدمات علمية للأهل العلم من جهة والحصول على الثواب والأجر من جهة أخرى انفردت الكتب المحبسة بمجموعة من الخصوصيات لتمييزها عن باقي الكتب الأخرى، وللمحافظة عليها من أيدي العابثين، لتؤدي رسالتها العلمية و الدينية. ومن الفوائد القيمة لأحباس المخطوطات أنها ساهمت بشكل كبير في المحافظة على هذا التراث الثمين فلولا الأحباس ما وصلتنا العديد من المخطوطات، لأن غالبية المخطوطات الموجودة في المكتبات أصلها حبس. كانت الكتب المحبسة عوناً وسنداً للطلاب في طلب العلم واكتساب المعرفة سيما للغير قادرين على

الحصول عليها من مكان آخر، وبذلك كانت لها مساهمة كبيرة في تشجيع الناس على طلب العلم و نشر الثقافة في أوساط المجتمع.

## الهوامش

<sup>1</sup> استعمل الفقهاء الوقف والحبس وكلاهما يؤديان نفس المعنى، وشاع استعمال الوقف عند أهل المشرق بينما استعمل أهل بلاد المغرب الحبس بالضم، الحُبْسُ بالضم ما وُقِفَ، وَحَبَسَ الْفَرَسَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَحْبَسَهُ فَهُوَ مُحَبَّسٌ وَحَبِيسٌ وَالْأُنْثَى حَبِيسَةٌ والجمع حَبَائِسُ، ومعنى تحبسه أن لا يورث ولا يباع ولا يوهب ولكن يترك أصله ويجعل ثمره في سُبُلِ الْخَيْرِ؛ (محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، ج6، دار صادر، بيروت، د ت، ص44)

<sup>2</sup> الفيروزآبادي: مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازي (ت: 817هـ / 1415م) القاموس المحيط، ج2، المطبعة الأميرية، ط3، مصر، 1301هـ، ص204

<sup>3</sup> سورة القيامة، الآية 13

<sup>4</sup> سورة آل عمران: الآية 92

<sup>5</sup> صحيح مسلم - كتاب الوصية - باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، حديث رقم 1631؛ يحيى بن شرف النووي محي الدين أبو زكريا، صحيح مسلم بشرح النووي، المطبعة المصرية بالأزهر، 1929، ص96

<sup>6</sup> أخرجه ابن ماجه في «المقدمة» باب ثواب مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرِ 242

<sup>7</sup> حسن الوراكلي، مباحث في تاريخ الغرب الإسلامي، دار الأمان للطبع والتوزيع، الرباط، المغرب، 2013، ص55

<sup>8</sup> BROSELARD (CH). Les inscription arabes de Tlemcen \_ Mosquée de ouled EL -Imam, revue Africaine, N 15 , année 1859, pp170.171.

<sup>9</sup> الونشريسي أبو العباس أحمد بن يحيى، المعيار العرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل افريقية والأندلس والمغرب، ج7، ت محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1980، ص264

<sup>10</sup> نفسه، ص7

<sup>11</sup> أبو العباس الدرجيني، طبقات المشائخ بالمغرب، تحقيق إبراهيم طلاي، ج1، مطبعة البعث، قسنطينة، 1974، ص56



- <sup>12</sup> تعود تسميتها بهذا الاسم لوجودها في القصب المشرفة على السوق و التي تسمى المعصومة؛ (أبو عبيد البكري، المسالك والممالك، تحقيق أدريان فان ليوفن و أندري فيري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992، ص733)
- <sup>13</sup> عيسى الحريري، الدولة الرسمية بالمغرب الإسلامي - حضارتها وعلاقتها الخارجية بالمغرب والأندلس، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت، 1987، ص237
- <sup>14</sup> عبد الحميد عويس، دولة بني حماد صفحة رائعة مت التاريخ الجزائري، دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط2، 1991، ص254
- <sup>15</sup> عبد الكريم الفكون، منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والهداية، تحقيق أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، الجزائر، 1987، ص36
- <sup>16</sup> هو أبو عبد الله محمد بن الحسن بن ميمون التميمي القلعي أصله من قلعة بني حماد، نشأ بالجزائر ودرس فيها، ثم انتقل إلى مدينة بجاية مستوطنا قرأ فيها وبرز في النحو والبلاغة والدب وكان له درس يحضره نبهاء وفضلاء الطلبة، توفي سنة 673هـ / 1274م، (أبو العباس الغبريني، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة بجاية، تحقيق عادل نويهض، منشورات دار الأفاق الجديدة، ط3، بيروت، لبنان، 1979، ص 67 )
- <sup>17</sup> نفسه، ص 70
- <sup>18</sup> تولى أبو حمو موسى الثاني حكم دولة بني زيان من سنة هـ 760 / 1359م إلى سنة 791هـ / 1389م وهو باعث الدولة الزيانية من جديد بعد أن كانت تحت سيطرة المرينين؛ ( محمد بن عبد الله التنسي، تاريخ بني زيان مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، تحقيق محمود بوعياذ، المؤسسة الوطنية للكتاب و المكتبة الوطنية الجزائرية، الجزائر، 1985، ص157 )
- <sup>19</sup> BROSSELDARD (CH). Op cit.p.90
- <sup>20</sup> محمد التنسي، المصدر السابق، ص180
- <sup>21</sup> تولى حكم الدولة الزيانية ما بين سنتي 796 - 801هـ / 1394 - 1399م حيث تمت بيعته في شهر ربيع الثاني سنة ست وتسعين و سبعمائة هجرية؛ ( نفسه ، ص210)
- <sup>22</sup> نفسه ، ص211
- <sup>23</sup> نفسه ، ص211
- <sup>24</sup> روضة النسرين في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين، تحقيق يحي بوعزيز، دار البصائر للنشر، الجزائر، 2009، ص149

- <sup>25</sup> أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري، ج1، الشركة الوطنية النشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص187
- <sup>26</sup> نفسه، ص308
- <sup>27</sup> محمد المنوني، قبس من عطاء المخطوط المغربي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1999، ص635
- <sup>28</sup> أبو العباس الدرجيني، المصدر السابق، ص 471
- <sup>29</sup> كان في مدينة تلمسان سوق خاصة ببيع الكتب، ( محمد ابن مرزوق، والمسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن، تحقيق: ماريا خيوس بغيرا، موفم للنشر، الجزائر، 2011، ص460)، (محمد التنسي، المصدر السابق، ص124)
- <sup>30</sup> محمد ابن مرزوق، المصدر السابق، ص507.406
- <sup>31</sup> حسن الوراكلي، المرجع السابق، ص 55
- <sup>32</sup> محمد التنسي، المصدر السابق، ص211
- <sup>33</sup> نفسه، هامش، رقم 534، ص211 نقلا عن « E. Lévi Provençal : Note sur un Coran royal du XIV° siècle » Hespéris-Année 1921- 1er trimestre- p.p 83-86
- <sup>34</sup> نفسه، ص211
- <sup>35</sup> نفسه، هامش رقم 537، ص211
- <sup>36</sup> فيلاي عبد العزيز، دراسات في تاريخ الجزائر والغرب الإسلامي، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، ص230
- <sup>37</sup> لم نقف على ترجمة له في المصادر التي اعتمدنا عليها
- <sup>38</sup> استولى السلطان المريني أبي يعقوب يوسف على المغرب الأوسط، وبنى من القرب من تلمسان مدينة سماها المنصورة، (محمد التنسي، المصدر السابق، ص130)
- <sup>39</sup> عبد الرحمن بن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ج7، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، لبنان، 2000، ص299.
- <sup>40</sup> حسن الوراكلي، المرجع السابق، ص56
- <sup>41</sup> محمد ابن مرزوق، المصدر السابق، ص475
- <sup>42</sup> نفسه، ص476

- <sup>43</sup> أبو زكريا يحيى بن موسى المازوني ، الدرر المكنونة في نوازل مازونة، مخطوط، تحت رقم 827،  
جامعة الأمير عبد القادر ، قسنطينة ، ورقة 247 و  
<sup>44</sup> نفسه، ورقة 248ظ
- <sup>45</sup> محمد ابن مرزوق، المناقب المرزوقية، تحقيق سلوى الزاهري، مطبعة النجاح الجديدة، الدار  
البيضاء، المغرب الأقصى، 2008، ص 272
- <sup>46</sup> أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن التاسع  
المجري، ج1، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2015، ص300
- <sup>47</sup> تم تحقيق الكتاب مؤخرًا من طرف شريف المرسي وجعل لوفاة مؤلفه أبي إسحاق إبراهيم بن  
أبي زكريا يحيى بن محمد بن موسى التحجبي التلمساني سنة 699هـ، و حققه أيضا محمد شايب  
شريف جاعلا لوفاة مؤلفه أبي إسحاق إبراهيم بن أبي زكريا يحيى التلمساني بن محمد بن موسى  
التحجبي التلمساني (ت1264/هـم) معتمدا على كتاب صلة التكملة في وفيات 663هـ  
<sup>48</sup> أبو إسحاق إبراهيم بن أبي زكريا يحيى بن محمد بن موسى التحجبي التلمساني (ت663هـ)،  
المع في الفقه، مخطوط، الأزهر الشريف، القاهرة، رقم النسخة: 314856، ورقة رقم 1 و  
<sup>49</sup> حسن الوراكلي، المرجع السابق، ص59
- <sup>50</sup> أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن التاسع  
المجري، ج1، ص300
- <sup>51</sup> كويكولوجيا (codicologie) لفظ يتركب من *codex* وتعني كتاب في اللاتينية  
و *logos* وتعني علم، فهو يدرس الكتاب المخطوط باعتباره قطعة مادية، فهو علم يبحث في  
خوارج النص كالحواشي، والشروح، والتصحيحات والتعليقات، والوقفيات، و الإجازات ثم  
العناصر المتعلقة بصناعته كالتوريق وترقيمه والتجليد وتجارة وفهرسة؛ (أحمد شوقي بنين، في  
الكتاب العربي المخطوط، دار أبي رزاق للطباعة والنشر، الرباط، المغرب، 2013، ص52 )  
<sup>52</sup> نفسه، ص59
- <sup>53</sup> يمكن الإطلاع على صيغ توثيق عقود الأحياس في(ابن عرضون احمد بن الحسن،التقييد  
اللائق بمنعلم الوثائق، نسخة مصورة من مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 1 / 3 :  
190، ورقة 71ظ، ورقة 72و)، و ( الجزيري، المقصود المحمود في تلخيص الوثائق والعقود،  
نسخة مصورة من مخطوط بمكتبة جامعة هرفرد تحت رقم Ms. 1704 . 183arabe  
<sup>54</sup> أحمد شوقي بنين، المرجع السابق، ص76

- 
- <sup>55</sup> عبد القادر ربوح، الأعباس ودورها في المجتمع الأندلسي ما بين القرن 4 - 8هـ / 10-15م مذكرة ماجستير في التاريخ الإسلامي الوسيط، كلية العلوم الاجتماعية و الإنسانية، جامعة الجزائر، 2006، ص106
- <sup>56</sup> الونشريسي المصدر السابق، ص37
- <sup>57</sup> نفسه، ص193